الاستشهاد بالشعر في تفسير القرآن الكريم

د. طارق أحمد آهنغر[١]
إشفاق أحمد واني[٢]

إن أفضل العلوم علم كتاب الله عزّ وجل، الذي بعث به رسوله بلسانه العربي المبين وجعله هدى للمتقين، ورحمةً وشفاءً للعالمين. وحث النبي ﷺ على تعلمه وتعليمه حين قال ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنِ وَعَلَّمَهُ))[٣]. وأول ما يحتاج إليه المسلم لفهم القرآن معرفة معاني ألفاظه وغرائبه كما يحتاج إلى معرفة أساليبه البلاغية والبيانية ليتمكن في فهمه وتدبره ويستطيع من الوصول إلى الدرر الكامنة في القرآن الكريم. ولا سبيل إليه إلا من خلال معرفة واسعة بلسان العرب لا سيما الشعر الجاهلي. ولذا يعد الشعر الجاهلي مرجعا معتمدا به لأساليب اللغة العربية البلاغية والبيانية. وهو المصدر الأصل لمفرداتها اللغوية وأساليبها التعبيرية، ولذا يعبره ابن قتيبة بأنه: "معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام."[٤] فالشعر هو الذي ساهم مساهمة فاعلة في تأسيس قواعد اللغة، وله منزلة سامية، وأثر بالغ في فهم غريب القرآن الكريم، والوصول إلى معانيه، والاستشهاد به في تفسيره. وهذا المقالة

---

١ الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة كشمير، سري نغر كشمير.
٢ باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة كشمير، سري نغر كشمير.
٣ البخاري، فضائل القرآن، رقم: ٥٠٢٧.
٤ عيون الأخبار، ج٢، ص: ٢٠٠.

سيلقي الضوء على الأهمية الشعر الجاهلي في تفسير معاني الكلمات القرآنية وتعبيراتها، ورجوع المفسرين الى الشعر الجاهلي لاستشهاد آيات القرآنية في أماكن غير فليلة.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي، استشهاد بالشعر، السياق، الشواهد اللغوية، الشواهد النحوية

وقد استخدم اللغويون والمفسرون الشعر الجاهلي في تفسير النص القرآني والكشف عن غريب ألفاظه وإزالة الغموض عن معانيه، ومن ثم كان لا بد من معرفة الشعر الجاهلي وأسراره لمن يهتم بتفسير القرآن الكريم. ولقد واقف العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن يقوم بتفسير القرآن إلا بمعرفة دقيقة باللغة الجاهلية وشعرها.

وإذا أمعنا النظر نجد أن لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب قصب السبق في هذا الباب، فهو أول من نوه بأهمية الشعر في فهم القرآن وغريب ألفاظه، فقد روي عنه أنه سئل على المنبر عن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾[1]، فقال له رجل من هذيل: "التخوف عندنا التنقص، ثم أنشد:

تَخَوَّفَ الرحل منها تامكاً قرداً كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَة السَّفَنُ"[2]

وعلق عمر على قول الأعرابي بقوله: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإنه فيه تفسير كتابكم."[3]

وتابع هذا المنهج كثير من الصحابة بعد عمر بن الخطاب، وعلى رأسهم عبد

---

١ سورة النحل: ٤٧

٢ وهو لأبي كبير الهذلي، وقيل هو لزهير.

٣ الموافقات، ج١، ص: ٥٨، والكشاف للزمخشري، ج٢، ص: ٦٠٩.

الله بن عباس الذي قد أكثر في الاستشهاد بالشعر في تفسير القرآن، وكثيراً ما نجده يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربي الجاهلي. كما كان يقول: " إذا سأَلْتُمُونِي عَنْ غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإِنَّ الشعر ديوان العرب."[1] وقد جاء أن نافع بن الأزرق جاءه يوما، فقال له: "إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس: "سلالي عما بدا لكما". ومن مسائل نافع بن الأزرق لعبد الله ابن عباس: «قال: أخبرني عن قوله: ﴿شِرْعَة وَمِنْهَاجًا﴾. قال: "﴿الشِرْعَة﴾: الدين، ﴿والمِنْهَاج﴾: الطريق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب وهو يقول: لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينا ومنهاجا. قال أخبرني عن قوله: إذا أثمر وينعه. قال: " نضجه وبلاغه. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم النبت يانع ..... الخ[2]

وكان هذا المنهج متوفرا ومستفيضا بين الصحابة والتابعين واللغوين والمفسرين، حيث كانوا يستعينون بشعر العربي الجاهلي والاستشهاد به في تفسير آيات القرآن ومعرفة معانيها وفهم غرائبها. وقد سئل مكحول (ت ١١٢هـ) عن قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾[3] قال: "أما سمعت قول الشاعر: وقامت الحرب

---

١ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج٢، ص: ٦٧.

٢ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج٢، ص: ٦٧-٦٩

٣ القلم: ٤٢

بنا على ساق..."، [1] أي: إذا اشتد القتال في الحرب، فمعناه: شدة ذلك اليوم.

ويجدر بأن نذكر من اللغوين أبي عبيدة الفراء؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ فوضع كتابا في تفسير المشكل من آيات القرآن. وسماه: ((تأويل مشكل القرآن)). وقد حذا فيه حذوهما في تفسير غرائب ألفاظ القرآن ومعانيه، ولا سيما الآيات التي تشكل فهمها. وجرى كذلك مجراهما في الاستشهاد بشعر العرب القديم. ومثال ذلك قوله في تفسير هذه الآية: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضرباً بِالْيَمِينِ﴾ [2] لأن في اليمين القوة وشدة البطش، فأخبرنا عن شدة ضربه بها. وقال الشمّاخ [3]:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أي أخذها بقوة ونشاط." [4]

ولم ينحصر الاستشهاد بالشعر في كشف معاني غرائب ألفاظ القرآن فحسب، وإنما نجد المفسرين يستخدمونها في موضوعات شتى. ويمكن تقسيمها بما يلي:

١. **الشواهد الصوتية**

من المسائل التي لفت إليها أنظار المفسرون القضايا الصوتية لألفاظ القرآن:

- كتسهيل الهمز وتحقيقه

---

١ إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر بن الأنباري، ج١، ص: ٩٩.

٢ الصافات: ٩٣

٣ [الشعر والشعراء، ج١، ص: ٢٧٨]

٤ [تأويل مشكل القرآن، ص: ١٥٣]

- والإدغام،
- والإمالة،
- والترقيق والتفخيم

ومن أمثلتها في الإدغام: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾[1]

يقول الفراء: "معناهُ- والله أعلم-: ((تثاقلتم)) فإذا وصلتها العرب بكلام أدغموا التاء فِي الثاء؛ لأنها مناسبة لها، ويُحدثون ألفًا لم يكن ليبنوا الحرفَ على الإدغام فِي الابتداء والوصل، وكأن إحداثهم الألف ليقع بها الابتداء، ولو حذفت لأظهروا التاء لأنها مبتدأة، والمبتدأ لا يكون إلا متحركًا. وكذلك قوله: ﴿حَتَّىَ إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً﴾ ...[2] وأنشدني الكسائي:

تُولِي الضجيع إِذَا ما استافها خَصِرا عَذْبَ المذاقِ إِذَا ما أتابع الْقُبَلُ"[3]

والشاهد فيه ((أتابع)) ومعناه ((تتابع)) فأدغمت التاء الأولى في الثانية، والإدغام هو ضم حرف إلى حرف آخر من نفس المخرج أو قريب منه، فينطق حرفًا واحدًا مشددًا، حيث يكون الحرف الأول ساكنًا والثاني متحركًا. ومن سنن العرب في كلامها أنّها لا تبدأ الكلام بالساكن فأتوا بهمزة الوصل بغية التوصل للنطق بالساكن بعدها، ومثله: ((أثاقل)) و((ادّارك)) وأصلهما: ((تثاقل)) و((تدارك))، فأدغم المتقاربان لأنّ "التاء" قريبة المخرج من الثاء والدال واجتلبت همزة الوصل لتيسير النطق.

---

١ [التوبة: ٣٨]

٢ [الأعراف: ٣٨]

٣ [معاني القرآن للفراء، ج١، ص: ٤٣٧-٤٣٨]

وبعد الفراء توارد المفسرون كالطبري وابن عطية على الاستشهاد بهذا الشعر على مسألة الإدغام وهي مسألة صوتية.[1]

٢. الشواهد اللغوية

وهي ما استشهد به المفسرون في استعمال لفظة ما من حيث المعنى ومن حيث اشتقاقها الأصلي ومن حيث ما طرأ عليها من تطور دلالي. ويدل فيه الاستشهاد بالشعر لتوضيح لفظة غريبة، ومن أمثلتها: أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن تفسير قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُوَاظٌ مِن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [2] ما النُّحَاسُ؟ فأجابه ابن عباس رضي الله عنه بقوله: "هو الدخان الذي لا لهب فيه." فقال ابن الأزرق: وهل كانت العرب تعرف ذلك؟ قال نعم، أما سمعت بقول النابغة (الجعدي):

يُضِيءُ كَضوء سراج السلي ط لم يجعل الله فيهِ نُحَاسَا"[3]

يعني: دخانا.

واستشهد به علماء اللغة [4]على أن معنى النحاس هو ما ذهب إليه ابن عباس من الدخان الذي لا لهب فيه. قال الأزهري: "وهو قَولُ جَميعِ المفسرين." [5]

ومن هذا النوع قول الشمّاخ بن ضرار الغطفاني:

---

١ [ينظر: جامع البيان، ج١١، ص: ٤٥٩، والمحرر الوجيز، ج٣، ص: ٣٤]

٢ [الرحمن: ٣٥]

٣ [غريب القرآن في شعر العرب، ص: ٥٢].

٤ [الصحاح، ج٣، ص: ٩٨١، لسان العرب، ج٦، ص: ٢٢٧، تحت مادة: (نحس)]

٥ [تهذيب اللغة، ج٤، ص: ١٨٦].

ذَعَرتُ به القَطا ونفيتُ عنهُ مقامَ الذئبِ كالرَّجُل اللعينِ [1]

معناه: مقام الذئب اللعين كالرجل. حيث استشهد به المفسرون على أن أصل اللعن الطرد والإبعاد والإقصاء. [2] كما استشهد به اللغويون أيضا على هذا المعنى. [3]ونظائر هذا النوع من الشواهد كثيرة في كتب التفسير.

٣. الشواهد النحوية

يحتل شعر العرب مكانة بارزة عند النحاة في بناء القواعد النحوية حتى أصبحت كلمة "الشاهد" في إطلاقها تنحصر على الشعر فقط. وأما المفسرون فهم يستشهدون بالشعر لبيان تركيب أو بنية، أو لبيان قاعدة أو تأكيدها، أو ما استثني عنها، أو توجيه ما جاء مخالفاً لها ونحو ذلك، فخذ مثالا مما أجازه الفراء موضحا في توجيه **ما جاء مخالفا للقاعدة** كقوله تعالى: ﴿أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾ [4] من الخفض في كلمة ﴿عاصِفٍ﴾ على المجاورة على أنها نعت ﴿الريح﴾ خاصة، لأن العصُوف لا يكون للَأيام إنَّما يكون للريح، "فلما جاء بعد اليوم أتبعته إعراب اليوم وَذَلِكَ من كلام العرب أن يُتبعوا الخفضَ الخفضَ إذا أشبهه". [5] ثم استشهد عليه بشعر ذي الرمة:

كأَنَّما ضربت قُدّامَ أعْيُنِها قُطْنا بِمُستحصِد الأوتارِ مَحْلوجِ

---

١ [انظر ديوانه، ص: ٣٢١].

٢ [ينظر: مجاز القرآن، ج١، ص: ٤٦، تفسير الطبري، ج٢، ص: ٢٣٢].

٣ [تهذيب اللغة، ج٢، ص: ٣٩٦، مقاييس اللغة/ ج٥، ص: ٢٥٣، لسان العرب، ج١٣، ص: ٣٨٨، الصحاح، ج٦، ص: ٢١٩٦].

٤ [إبراهيم: ١٨]

٥ [معاني القرآن، ج٢، ص: ٧٤].

أراد ((بمستحصد الأوتار)): "مِندفا متينا." وقوله: ((محلوج)) من صفة: ((قطنا)) وكان حقه النصب، ولكنه جره على المجاور؛ أي: لمجاورة الاسم المجرور. وهذا هو الشاهد في البيت. ومنه يستشهد النحاة على الحمل على الجوار.[1]

وكذلك استشهد المفسرون بالشواهد الشعرية النحوية في توجيه القراءات من حيث النحو.

كما أورده ابن عطية في تفسيره[2] في توجيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه- وهو ما استثني من القاعدة العامة بشروط- في قراءة ابن عامر لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُم﴾[3]، حيث قرأ ابن عامر ((زُيِّنَ)) بالبناء لما لم يُسمّ فاعله، ورفع ((قَتْلُ))، ونصب ((أولادَهم))، وجرّ ((شركائِهم))، مستشهدا لتوجيه ذلك من قول الشاعر:

فَزَجَجْتُها بِمِزَجَّةٍ زَجّ القَلوصَ أبي مَزَادَهُ[4]

فوجه الكلام في هذا الشاهد: زجّ أبي مزادةَ القَلوصَ، وفصل بين المضاف وهو ((زَجّ)) وهو مصدر، والمضاف إليه وهو ((أبي مزادة)) بالمفعول به وهو ((القلوص)).

٤. الشواهد الصرفية

وهي ما استشهد به المفسرون في بيان الأمور التالية:

---

١ [انظر: أسرار العربية، ص: ٢٣٩، والإنصاف للأنباري، ج٢، ص: ٤٩٥، وخزانة الأدب، ص: ٩١/٥]

٢ [المحرر الوجيز، ج٢، ص: ٣٥٠]

٣ [الأنعام: ١٣٧]

٤ [المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري، ص: ١٣٣]

أ. تأليف الكلمة المفردة

ب. وما وقع فيها من تغيير أو حذف،

ج. وما في حروف الكلمة من أصالة وزيادة مما له أثر على المعنى.

وكثيرا ما تعرض للمفسرين المسائل الصرفية أثناء تفسيرهم للمفردات القرآنية فمنهم من يطيل الوقوف عندها ويعالجونها بالبحث محتجين لرأيهم بشواهد الشعر.

ومن أمثلة الشواهد الصرفية فيما تتعلق بالزيادة في الحروف ما أورده المفسرون على أن صيغة "فَعِيل" تأتي بمعنى "مفعل" وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾،[2] فأليم بمعنى مؤلم، وبديع بمعنى مبدع. وفيه يقول الطبري: "والأليم: هو الموجِع، ومعناه: ولهم عذاب مؤلِم، فصرف مؤلم إلى أليم كما يقال: ضربٌ وجيعٌ بمعنى موجِع، والله بديع السماوات والأرض بمعنى مُبدِع."[3] ثم استشهد الطبري لما ذهب إليه بقول الشاعر عمرو بن معد يكرب:

أمنْ رَيحانةَ الداعِي السَمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ.

ومعناه: الداعي المسمِع. وكذلك استشهد له من قول غيلان:

---

١ [البقرة: ١١٧]

٢ [البقرة: ١٥]

٣ [جامع البيان، ج١، ص: ٢٩١]

ويرفعُ مِن صُدورِ شمر دلات يصدّ وجوهها وهَج أَلِيمُ.[1] أي: مؤلم.

ومن الأمثلة ما أورده المفسرون في أنّ صيغة "فَعِيل" تأتي بمعنى "فاعل"، وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[2]، ﴿والبلد الأمين﴾: هي مكة، والمراد بالأمين: الآمن، والعرب تقول للآمِن: الأمين. واستدل الفراء والطبري بقول الشاعر:

ألمْ تعلمي يا أسْمَ ويْحك أنني حلفتُ يمينا لا أخونُ أميني.

يريد بأميني: آمني.[3] وتبع الفراءَ فيه غيرُه من المفسرين كالثعلبي والقرطبي.[4]

وكذلك يستشهد المفسرون بالشعر في بيان أن الصيغتين المختلفتين للكلمة واحدة قد يستعملان بمعنى واحد. ومن أمثلتها ما أورده المفسرون في أن: ((استجاب)) و((أجاب)) بمعنى واحد وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى﴾.[5] واستشهدوا لذلك بقول كعب الغَنَوي حيث قال في رثاء قريب له:

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النِّدا فلم يستجبْه عند ذاك مجيبُ

---

١ [جامع البيان، ج١، ص: ٢٩١]

٢ [التين: ٣]

٣ [معاني القرآن، ج٣، ص: ٢٧٦، وجامع البيان، ج٢٤، ص: ٥٠٥].

٤ [تفسير الثعلبي، ج١٠، ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص: ١١٣]

٥ [آل عمران: ١٩٥].

أي: لم يُجبه.[1]

وهذا الشاهد أكثر دورانا في كتب التفاسير واللغة يستشهد به على أن صيغة ((أفعل)) بمعنى ((استفعل)) إلا أن السين والتاء فيها للتأكيد.

ومن الشواهد الصرفية فيما وقع من الحذف في الكلمة ما أورده ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[2] من الشاهد للاستدلال على جواز تجريد اسم الإشارة من هاء التنبيه -كما في الآية- بقياس على جواز حذف اسم الإشارة مع بقاء حرف التنبيه حيث قاسه على شعر عبد بني الحسحاس:

"ها أنا دون الحبيب يا وجع..."[3]

٥. الشواهد البلاغية

وهي كل ما استشهد به المفسرون لبيان أساليب الكلام عند العرب ولتوضيح المسائل البلاغية في القرآن. وقد عُني المفسرون بالشواهد الشعرية عناية بالغة حيث أوردوا كثيرا منها في مواضع متفرقة في تفاسيرهم. وكان الزمخشري أكثر المفسرين اهتماما بها، لأنه اعتنى بعلم البلاغة في تفسيره أتم عناية، غير أن لأبي عبيدة (٢٠٩ هـ) قصب السبق في هذا المجال حيث جاء بكثير من المباحث البلاغية في كتابه الفذ ((مجاز القرآن)) مستعينا بالشواهد الشعرية على ما يذهب إليه

---

١ [ينظر: المحرر الوجيز، ج١، ص: ٢٥٦، والتفسير الكبير، ج٥، ص: ٢٦٦، والتحرير والتنوير، ج٤، ص: ٢٠٢]

٢ [طه: ٨٤]

٣ [التحرير والتنوير، ج١٦، ص: ٢٧٩]

وشاركه فيه الفراء.

ثم جاء بعدهما ابن قتيبة (٢٧٦هـ) فاستطاع أن يُجلي كثيرا من المسائل البلاغية مستشهدا بالشعر فاستوعب ما ورد في ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء إلا أنه صبغه في صبغة جديدة في الترتيب والتنظيم.[١] وقد تأثر به كثير من المفسرين الذين جاءوا بعده كالطبري، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي وغيرهم، حيث تداولت تفاسيرهم نفس الشواهد الشعرية التي أوردها ابن قتيبة فأصبحت هذه الشواهد السائرة للمباحث البلاغية في كتب التفسير. ومن أمثلة الشواهد البلاغية:

ما ذكره أبو عبيدة في تفسير قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾[٢]، حيث ذكر هذه الآية فقال: "ثم خاطب شاهداً فقال: ﴿فَسِيحُوا﴾[٣]، مَجازُهُ (أي: معناه) سِيروا وأقبلوا وأدبروا، والعرب تفعل هذا، قال عنترة:[٤]

حلّت بأرضِ الزائرين فأصبحت عَسِرا عليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخرَمِ"[٥]

وهو يشير هنا إلى أسلوب ((**الالتفات**))[٦] وهو "انصراف المتكلم عن المُخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك."[٧] ففي البيت الشعري عدل

---

١ [أثر النحاة في البحث الدلالي، ص: ١٨٠]

٢ [التوبة: ١]

٣ [التوبة: ٢]

٤ [ديوان عنترة بن شداد مع شرح الخطيب التبريزي، ص١٥١]

٥ [مجاز القرآن، ج١، ص: ٢٥٢]

٦ والالتفات يعد من محاسن الكلام بما يجعل في العبارات التنوع ويلفت انتباه السامع.

٧ [معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج١، ص: ٢٩٤].

الشاعر من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، وفي الآية الكريمة كان الخطاب موجهًا للغائب ثمّ انتقل إلى ضمير الخطاب. وربما يكون العكس في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾[1] ففي هذه الآية كان الخطاب موجها إلى مخاطب فانتقل إلى ضمير الغائب.

وفيه قال أبو عبيدة: "والعرب قد تُخاطب فتخير عن الغائب والمعنى للشاهد، فترجع إلى الشاهد فتخاطبه."[2]، كما أشار أليه الفراء أيضا إلا أن أول من سماه التفاتا هو الأصمعي.[3]

وأما ابن قتيبة فقد أدخل "الالتفات" في باب ((مخالفة ظاهر اللفظ معناه))، فقال: "ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقوله: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[5] ثم قال: ﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[6] قال الشاعر (النابغة الذبياني):

يا دار ميّة بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوتْ وطالَ عليها سالف الأبد

---

١ [يونس: ٢٢].

٢ [مجاز القرآن، ج٢، ص: ١٣٩]

٣ [الصناعتين، ص: ٣٩٢]

٤ [الروم: ٣٩]

٥ [الحجرات: ٧]

٦ [الحجرات: ٧]

وكذلك أيضا تجعل خطاب الغائب للشاهد، كقول الهذليّ (أبو كُبير):

يا ويح نفسي كان جِدّة خالد وبياضُ وجهك للتّراب الأعفر"[1]

فنراه يستشهد بأشعار الشعراء الجاهلين ليبين أنه كان شائعا في العرب فجاء القرآن على وفقه لكن بأسلوب فذ. كما نرى كثيرا من المفسرين يشيرون إلى هذا الأسلوب كالطبري حيث أورد عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[2] قول زهير:

فصحوتُ عنها بعد حُبٍّ داخلٍ والحب يُشربه فؤادُك داءُ

فاستشهد به الطبري على أن المعنى؛ أشربوا حبَّ العجل، وحُذف ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام إذ من المعلوم أن العجل لا يُشرب القلبَ، وأن الحب هو الذي يُشرب القلب.٣

ومن الأساليب البلاغية الذي قد كثر فيه الاستشهاد بالشعر؛ أسلوب المجاز، والمجاز هو استعمال اللفظ على غير معناه الأصلي. ومن أمثلتها ما أورده الطبري من الشواهد الشعرية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[4] حيث فسره أولا بقوله: "يعني بذلك جل ثناؤه: وإن من الحجارة لما يهبط: أي يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته".[5] ثم ذكر قول من حمل

---

١ [تأويل مشكل القرآن، ص: ١٧٧]

٢ [البقرة: ٩٣]

٣ [جامع البيان، ج٢، ص: ٢٦٥]

٤ [البقرة: ٧٤]

٥ [جامع البيان، ج٢، ص: ١٣٥]

الهبوط في الآية على المجاز، فقال: "وقال آخرون: بل قوله: ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[1]، كقوله: ﴿جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[2]، ولا إرادة له، قالوا: وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله يرى كأنه هابط خاشع من ذل خشية الله، كما قال زيد الخيل:

بجمع تضلُّ البُلْقُ في حجراته ... ترى الأُكْمَ فيها سجدا للحوافر

وكما قال سويد بن أبي كاهل يصف عدوا له يريد أنه ذليل:

ساجدَ المِنخر لا يرفعه ... خاشعَ الطرْف أصمَّ المستمَع

وكما قال جرير بن عطية:

لما أتى خبر الرسول تضعضعت ... سورُ المدينة والجبال الخشَّع".[3] ثم يعقب على هذا القول بأن حمل الهبوط على المجار لا يبعد في تفسيرها إلا أنه لا يرى القول به لعدم ورده عن السلف، ومع ذلك نقل شواهد الشعر تدعم هذا القول.[4]

وعلى ما مضى لاحظنا أنّ المفسرين كانوا إذا يشكل عليهم معنى بعض الألفاظ القرآنية ويصادفون بإشكال وغموض في فهم أساليب القرآن الكريم فيلجؤون إلى كلام العرب وأشعارهم خاصة الشعر الجاهلي فيجدون فيهما دليلا يرشدهم ويعينهم على فهم ما أشكل عليه. كما تمكنوا من الكشف عن معان دقيقة للأساليب القرآنية من خلال تلك الشواهد الشعرية الذي أكثر المفسرون الاستشهاد به فكان جل اهتمامهم أن يجعلوا من الشعر الجاهلي دليلاً وشاهدًا على

---

١ [البقرة: ٧٤]

٢ [الكهف: ٧٧]

٣ [جامع البيان، ج٢، ص: ١٣٨، ١٣٧]

٤ [المرجع نفسه]

عربية القرآن وعربية ألفاظه وأساليبه، وتحديد معانيه، وليس هذا من باب الاحتجاج على غريب القرآن بالشعر، ولا من باب جعل الشعر أصلاً للقرآن الكريم، بل كان لتبيان معنى الحرف الغريب من القرآن بالشعر وبيان أساليبه من خلاله.

كما اكتشف لنا أنه لا بد للمفسرين من الاستشهاد ببيت من الشعر أو بشيء من كلام العرب لوضوح ما خفي من معاني بعض ألفاظ وحروف القرآن الكريم، ولإقناع السامع والمتعلم اللذين لم تكمل لهما الملكة في فهم مشكلات آياته.

ولا يختلف فيه الاثنان أن الشعر الجاهلي هو أكبر علوم العرب وأوفر حظوظ الأدب والمصدر الأصيل والمرجع الأول للغة القرآن الكريم وقد اتكل عليها المفسرون قاطبة كما مر بنا آنفا. وقد وصفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه أصح علوم العرب حيث قال: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه."[١]

ولا يكاد يوجد أي خلاف في أن القرآن معجزاً في نظمه وفصاحته وبلاغته بما لدينا من تراث الشعر العربي ولا سيما الجاهلي منه لأن أصحاب الذوق السليم هم الذين شهدوا بمنزلة القرآن وتفوق أسلوبه، ولذلك نال الشعر مكانة رفيعة في تفسير القرآن الكريم والاستشهاد به.

المصادروالمراجع

- القرآن الكريم.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه

١ [طبقات فحول الشعراء للجمحي، ج١، ص: ٢٤]

وسلم وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة-بيروت، ط١ (١٤٢٢هـ).

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية -بيروت (١٤١٨هـ).
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان
- دار ابن عفان-القاهرة، ط١ (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣ (١٤٠٧هـ).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- أبو بكر الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، المحقق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق-دمشق، عام النشر: ١٣٩٠هـ- ١٩٧١م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، دار الحديث-القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣ هـ
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت (٢٠٠٧م).
- ابن عباس، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس رضي الله عنهما، غريب القرآن في شعر العرب؛ سؤالات نافع بن

الأزرق إلى عبد الله بن عباس، المحقق: محمد عبد الرحيم وأحمد نصر الله، مؤسسة الكتب الثقافة-بيروت، ط١ (١٩٩٣م).

- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط٤ (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط٣ (١٤١٤هـ).
- الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت،
- ط ١(٢٠٠١م).
- ديوان الشماخ بن ضرار، المحقق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة: ١٩٦٨
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي البصري، مجاز القرآن، المحقق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١هـ
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن،
- تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان-القاهرة، ط١ (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م).
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون
- دار الفكر-دمشق، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، معاني القرآن، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة -القاهرة، الطبعة: الأولى.
- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات كمال الدين الأنباري، أسرار العربية، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم-بيروت، ط١ (١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م).
- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات كمال الدين الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين؛ البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية-بيروت، ط١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).
- عبد القادر البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط٤ (١٤١٨ هـ- ١٩٩٧م).
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ (١٤٢٢هـ).
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، المحقق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط١ (١٩٩٣م).
- الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تفسير الثعلبي المسمى: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١ (١٤٢٢، هـ- ٢٠٠٢م).

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن=تفسير القرطبي، تحقيق: سمير البخاري، دار عالم الكتب-الرياض، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.
- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، التفسير الكبير= مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣ (١٤٢٠هـ).
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- د. حسين، د. عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث الدلالي، دار غريب للطباعة والنشر-القاهرة (١٩٩٨).
- عنترة، أبو الفوارس عنترة بن شداد العبسي، ديوان عنترة بن شداد مع شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي. بيروت، ط١، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).
- د. مطلوب، د. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات-بيروت، ط١ (٢٠٠٦).
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الصناعتين، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.
- ابن سلّام، أبو عبد الله محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، طبقات فحول الشعراء، محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة.